

مستويات اللّغة في القصيدة الجزائرية الجديدة.

د/ ميلود شنوفي.

جامعة البليدة 2.

استهلال:

تكشف قراءة الشعر الجزائري الجديد عن آثار واضحة للاتجاه الوجداني في تطوير اللّغة الشعرية، وإثراء المعجم الشعري، وإدخال بعض التراكيب اللغوية ذات الدلالة الموحية التي يخلو منها معجم المحافظين « فقد ساعد ظهور التجارب الذاتية وتصوير مشاهد الطبيعة والربط بين الأحاسيس المشاعر والتعبير عن العواطف الإنسانية بحرية وطلاقة.»⁽¹⁾ وهذا فتح المجال أمام تطور اللّغة في القصيدة الجزائرية المعاصرة.

لقد رسخ في النقد أنّ الأدب تعبير عن الحياة أداته اللّغة⁽²⁾ ممّا يعني أنّ اللّغة هي الظاهرة الأولى التي يجب على الباحث الوقوف عندها في حديثه عن القضايا الفنيّة في الشّعر كونها لغة تختلف تماما عن اللّغة الإشارية، أو لغة التحليل العلمي، لأنّها لا تنقل المعاني، بل توحي إليها من خلال الطاقات الموسيقية والتصويرية لدى الشاعر، لذلك فهي في الشعر تعبر عن ذاتها وعن قدراتها بلسان الشاعر، وبتعبير آخر « إنّ الشاعر لا يستعمل اللّغة، وإنما هي تستعمله.»⁽³⁾

إنّ اللّغة الشعرية هي العمود الفقري الذي يقوم عليه العمل الشعري، وقد أصبحت البنية التعبيرية محلّ عناية الناقد والشاعر على السواء، لأنّ اللّغة من خلال هذا المنظور تعني الطريقة أو الأسلوب الذي يتبعه الشاعر و يرى "عز الدين إسماعيل" أنّه « ليس من المعقول في شيء بل ربما كان من غير المنطقي أن تعبر اللّغة القديمة عن تجربة جديدة، لقد أيقنوا أنّ كلّ تجربة لها لغتها، وأنّ التجربة الجديدة ليست إلا لغة جديدة أو منهجا جديدا في التعامل مع اللّغة.»⁽⁴⁾ و لذلك فإنّ الشاعر مطالب بأن تكون لغته مرآة تنعكس فيها صورة عصره لأن الشاعر ابن بيئته، وأن تكون نابضة حيّة بروحه وإحساسه

¹ - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1985، ص 313.

² - عز الدين إسماعيل، الأدب و فنونه، دار النشر المصرية، ط3، القاهرة 1965، ص38.

³ - نازك الملائكة، مجلّة آداب، ع10، أكتوبر 1971، ص12.

- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص359.⁴

وواقعه، فمن خلال لغة الشاعر نستطيع أن نعرف مدى استجابة الشعراء لظروف عصرهم، فنحن نعرف أنّ تجربة الشعر الجديدة قد مرّت بمراحل، وأنّ لكلّ مرحلة طابعها الذي يميزها تبعاً للعوامل والمؤثرات، كما أنّ لكلّ مرحلة إيجابياتها وسلبياتها ونستطيع أن نتبيّن ذلك من خلال جملة من الخصائص.

الضعف اللّغوي:

لعلّ مشكلة التعامل مع اللّغة بوصفها أداة للتوصيل من أكبر المشكلات التي يعاني منها الشاعر العربي المعاصر، وإذا كانت هذه حال الشاعر العربي، فإنّ معاناة الشاعر الجزائري، الذي ظلّت تواجهه هذه المشكلة باستمرار وبشكل حادّ، تصل حدّ التأزم أحيانا بما أنّه يعيش في محيط مازال يعاني من مأساة الاغتراب اللّغوي، ويكافح في استماتة في سبيل تعريب الجماهير، ورفعها إلى مستوى المتلقّي المتدوّق، يقول "محمد ناصر" «إننا نلاحظ هبوط مستوى اللّغة العربية، ولاسيما في أعمال الشعراء الشباب، الذين دخلوا الميدان الشعري بعد الاستقلال، ولاسيما جيل السبعينات، فإنّ الناظر في هذه النصوص من جانبها النحوي أو الصرفي أو المعجمي، يأسف حقاً لما يشيع في مفرداتها وتراكيبها من ضعف»⁽¹⁾

لكن هذه الظاهرة لا تشمل كلّ الشعراء الذين كتبوا شعراً جديداً في هذه الفترة لأنّ الأمر يتعلّق بثقافة الشاعر، ومدى علاقته بالتراث العالمي والجزائري، وحسب بعض النقاد فإنّ هذه الظاهرة مرضية ويمكن أن تزول مع قليل من الاكتراث... إنّ أديبا لم يحفظ البحري، وأبا نواس، وابن الرومي والمعري، وأبا تمام، والمنتبي، ولم يدرس الجاحظ، والأخطل، وابن قتيبة، وابن الأثير، وأبا الفرج ودعبلا،... ونجح البلاغة، لا يمكن أن يكون شاعراً ولا كاتباً، وإن قرأ مليون رواية وكتاب أجنبي، وإن درس خمسين عاماً أساليب الشعر والأدب العربي»⁽²⁾

وقد يكون سبب ذلك في الجزائر، التوجه إلى قراءة الشعر اللبناني أكثر من الشعر العراقي والمصري وحتى السوري... و قد بات معروفا ما آل إليه الشعر الجديد من حيث مستواه اللّغوي في لبنان، وكيف شوّهت أصالته العربية النظريات الغربية الدخيلة التي أصبحت في المدّة الأخيرة تتعمد تجاوز قواعد اللّغة العربية من نحو وصرف، وبلاغة وعروض بدعوى التجديد المستمر»⁽³⁾

¹ - المرجع نفسه، ص 174.

² - إبراهيم السامرائي، لغة الشعر بين جيلين، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، ص 113.

³ - أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت 1972، ص 250.

يقول الشاعر "أبو بكر زمال" في قصيدته "اكتب بالظن":

الرحلة مرّة في حنجره الطريق

أصابني ناي

وجيش من الكلمات

وهذا الانتظار-طاغيا- في الصحو

الآن يأتي أخي خاتما موته

يخبرني و لا يفيض⁽¹⁾.

إنّ كلمة "طاغيا" موظفة بطريقة غير صحيحة، ما أوقع الشاعر في خطأ لغوي كان يمكن تلافيه لو قال:

وهذا الانتظار طاغ في الصحو

وفي مقطع آخر:

هذا ما رصدت من أساي

وذلك تأويل ما تلبسني حين أفشيت سرّ ما لم أستطع عليه محوا

وتلك الهجرة رهينة بخطاي.⁽²⁾

فعبارة " ما لم أستطع عليه محوا" ذات لغة ركيكة لأنها لا تعطي مدلولاً جلياً للمعنى.

توظيف اللغة البسيطة:

- أبو بكر زمال، هامشات غبار الكلام، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2001، ص77.¹

- أبو بكر زمال، هامشات غبار الكلام، مصدر سابق، ص95.²

يسعى الشاعر المعاصر للوصول إلى قلوب المتلقين بغرض التأثير في وجدانهم ويستعمل لذلك الغرض لغة متطابقة مع واقع الحياة المعاصرة، وتعتمد الكلمات والتعابير ذات الحيوية الخاصة لأنها حاضرة في وجدانهم، حية على ألسنتهم، وليست منحوتة في دواوين الشعراء القدامى أو مستعارة من المعاجم اللغوية القديمة.

لقد حرص الشعراء المعاصرون على استخدام لغة بسيطة في التعبير عن مشاعرهم، وحافظوا في الوقت نفسه على اللغة العربية السليمة القواعد « ومن جهة أخرى فإنّ جيل السبعينات الذين بالغوا في الأخذ بالنظرية القائلة بأن لغة الشعر يجب أن تكون كلغة الحديث اليومية، تأثرا بدعوة الشاعر الإنجليزي "إليوت" ومن طبق هذه النظرية من الشعراء المحدثين مثل صلاح عبد الصبور.»⁽¹⁾

من أبرز الجوانب التي تفوق فيها "فاتح علاق" في قصائده الجديدة اقتراب لغته من الذوق المعاصر، وهي تناسب في تعابير لا تكلف فيها ولا تصنع:

أجول في المدينة الجديدة

أدخل في أعماقها

لعلني أصبح من عشاقها

لكنها تصدني وتغلق أبوابها

وكلما حاولت أن أمسكها

أخرجني حجابها.⁽²⁾

هذه المسحة من اللغة العادية تغلب على كامل ديوان الشاعر في معجم شعري بسيط، ينبض واقعية وسلاسة، وهي تراكيب ذات حسّ فني رفيع من الحياة اليومية، دون أن ينزل إلى لغة سوقية كما يفعل بعض شباب شعراء اليوم، فنحن أمام

¹ - محمد النويهي، قضية الشعر الجديد، دار الفكر العربي، القاهرة 1971، ص 39-44.

² - فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، مصدر سابق، ص 16.

لغة نفهمها كمواطنين وليس كنفاد. لكن مبالغة الشعراء المعاصرين في استثمار نظرية "إليوت" قد جرّدت التجربة عند الكثير من الشعراء من أهمّ عناصر العمل الشعري، وهو شاعرية اللغة، وكثافة الدلالة.

فقد أصبحت لغة الشعر نثرية باهتة، تكاد لا تميّز عن لغة السوق في شيء حتى « دخلت من هذا المنفذ إلى قاموس الشعر الجزائري المعاصر مفردات عامية و تراكيب غير شعرية، حتى فقد كثير من الشعراء حسن التفريق بين مفردة عربية فصيحة وأخرى عامية سوقية ممّا جرّ أغلبهم إلى الوقوع في بعض السلبيات في لغتهم، ومن ذلك لجوء بعضهم إلى إدخال المفردات العامية داخل الجملة الشعرية، وقد تكون ذات أصل فرنسي من ذلك: الشيك، البنك، الموضة، الفاتورة، التكنولوجيا.»⁽¹⁾ وهي كلمات حديثة دخلت من طول احتكاك الجزائري بلغة المستعمر الفرنسي. يقول عمار بن زايد:

وقاتلنا الزمان البغل...

مرغناه في الوحل

وفي الماء...

وفي الرمل...⁽²⁾

إنّما لغة بسيطة، أقرب إلى المتداول اليومي من كلام الناس، ولعلّ الشاعر "عمار بن زايد" تعمّد استخدام هذه اللغة البسيطة جدا ليعبّر عن واقع الجزائريين، لكنّ ذلك أصاب تجربته الشعرية بالهلهلة في بعض القصائد الموغلة في استخدام الكلمات استخداما عاديا دون أن يكون لها أثر جمالي.

كما أنّ استخدام اللغة الدارجة تعدّى المستوى الإفرادي إلى إدخال مقاطع كاملة من الأغاني والمرويات الشعبية. ولعلّ الأجدر « ألاّ يتدنّى الشاعر إلى استخدام لغة عامية يستمدّ مفرداتها وتراكيبها من لغة الحياة اليومية كما تدعو بها مجلة شعر وعلى رأسهم يوسف الخال.»⁽³⁾ وكذلك ألاّ يترفع كثيرا ابتغاء لغة غريبة عن العصر تفاصحا، كما يصّر على ذلك بعض المحافظين، فعلى الشاعر المعاصر أن يتخذ بين النظريتين المتطرفتين أسلوبا وسطا باستخدام لغة تتواءم مع التجربة « فإن دور

1 - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 372.

2 - عمار بن زايد، رصاص و زنايق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص 19.

3 - أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت 1972، ص 275-290.

الشاعر الأصيل هو أن يترقّع بلغة الكلام بدءاً ممّا سمعته أذناه من تراكيب ونبرات، وأنغام، وإيقاعات، ثمّ يزيدّها شحداً وصقلاً، ويزيدها تركيزاً وشحناً، وبهذا تصل كلمات اللّغة في الشعر أقصى غناها...»⁽¹⁾

استخدام اللّغة البديئة:

ينزل المعجم الشعري عند بعض شعراء الاتجاه الجديد أحياناً إلى استخدام كلمات بديئة تنتمي إلى أجواء الرذيلة والانحراف، وتتجرأ في الإفصاح عن الرغبات الجنسية المكبوتة، وتعابير تتناقى مع سموّ الشعر ومثاليته، وينحطّ معجمهم الشعري إلى استخدام ألفاظ السباب والشتيمة في أسلوب يتجاوز كلّ حدود اللياقة والأدب مستخدمين تعابير تشير الاشمئزاز، والنفور في نفوس المتلقين.

وعلى رأي "محمد ناصر" «فإنّ لغة الشعر يجب أن تبقى لغة مثالية متسامية حتى وهي ترتبط بالواقع، أمّا النزول بها إلى أن تصبح لغة سوقية فإنّه يفقدها كثيراً من خصائصها الجمالية، لأنّ المفردة تستمدّ أساساً من عمق الفكرة، وتلميح الصورة وصدق الإحساس، وذلك ما يعين الشاعر على تقديم تجربة حيّة نابضة.»⁽²⁾

يقول "عمار بن زايد" في قصيدته "الليل يرفض السكوت"، يهجو الرئيس المصري الأسبق "أنور السادات" بعد توقيعه اتفاقية "كامب ديفيد":

هذا صقر

يفتح فكيه

ويجري في كواليس الضجر

والبيع والشراء والحلم للقدر

والخطب المومسة

تفتح ساقبها أمام الحاضرين راغبة...

¹ - محمد النويهي، قضية الشعر الجديد، مرجع سابق، ص 115.

² - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 394.

من يشتري هذه النهود العاهرة

من يشتري؟

ويسقط الدولار فوقها كأوراق الخريف العاصف

ويركع المرتد يهذي: للنهود الفائزة

أرهن شعبي، وأبيع القاهرة⁽¹⁾

إنّما قصيدة تمثّل المدى البعيد من التدني والانحطاط من التدني والانحطاط اللذين وصل إليهما الأسلوب الشعري بدعوى تفجير اللّغة، واختراق جدارها، وهذا يوضّح مدى تأثير "نزار قباني" و "مظفر النواب" في شعر هؤلاء.

استخدام اللّغة الدخيلة:

يشيع في الشّعر الجديد استخدام بعض التعابير، والتراكيب اللّغوية التي لا تمتّ إلى الواقع الجزائري المسلم بصلة، ونعني بها هذه التراكيب التي دخلت الشعر العربي المعاصر تأثراً ببعض الشعراء الرّواد الذين يستخدمون الرموز المسيحية في تعابيرهم، مثل: الصلب، الفداء، الخطيئة، والواقع أنّ المرء ليتساءل عن انصراف الشعراء الجزائريين، وهم مسلمون إلى الرموز المسيحية دون الإسلامية مع أنّ التراث العربي الإسلامي ثريّ والتاريخ الجزائري القديم زاخر، وفي القصص الشعبية مادّة خام يمكن أن يستخرج منها الشعراء الرموز والصور.

وذلك رغم أنّ بسط مثقف يعرف التاريخ المسيحي، ودوره الرائد في استعمار الجزائر استيطانيا، ومحاولاته لتنصير المسلمين وغزوهم فكرياً « ونحن لا ننكر أنّ هذه الرموز ملك للبشرية جمعاء شأنها شأن غيرها من الديانات والثقافات الإنسانية الأخرى وعلى الشاعر أن يكون منفتحاً على هذه التجارب، مستفيداً منها، ولكن الذي ننكره هو الانسياق وراء هذه التعابير عن تقليد ومحاكاة لبعض الشعراء الرّواد والزجّج بها في تجارهم دون وعي أو تعمق.»⁽²⁾ يقول "إبراهيم صديقي" في قصيدته "إلى أبي نواس":

1 - عمار بن زايد، رصاص و زنايق، مصدر سابق، ص 07.

2 - ناصر بن محمد، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 399.

كم مرّة كنت مصلوبا على وجع⁽¹⁾

المحاكاة و الاقتباس:

التأثير والتأثر حالة طبيعية بين الآداب العالمية، ولن بنقص من قيمة أي شعر تأثره بمن سبقه أو عاصره، ولكنّ التأثر غير المحاكاة والمحاكاة غير الاقتباس.

من الظواهر اللافتة للنظر في الدواوين المعاصرة وجود جمل شعرية معروف أصحابها من الشعراء الكبار سواء أكانوا قدامى من فحول الشعراء، أم محدثين، وأن بروز هذه الظاهرة بهذا الحجم الكبير في الشعر الجزائري المعاصر جعلت الشباب الواعي يدرك خطورها، ممّا دفع بالبعض إلى أن يوجد نداء حار إلى زملائه الشعراء الشباب ليقول لهم «آن الأوان للبحث عن الجذور الحقيقية لكلمتنا الشعرية حتى نشتم رائحة تربة هذا الوطن، وهذا لن يتأتى إلاّ بالعودة إلى ثقافة هذا الشعب، وتراثه الأصيل عن طريق الفهم والاستيعاب.»⁽²⁾

وقد سمع "فاتح علاق" - فيما يبدو - هذا النداء، وهامو يحاكي:

نحن البلايا لا تسل عنا كم ظالم فينا له مكر⁽³⁾

من قول الأمير عبد القادر الجزائري:

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا وأي عيش لمن قد بات خفر.

ويقول في مقطع آخر:

أشربها معتقة أشرب

الفأر بساحتنا يلعب.⁽⁴⁾

متأثرا بابي نواس في قصائده الخمرية.

1 - إبراهيم صديقي، ديوان الجاحظية، جائزة مفدي زكرياء المغاربية للشعر، منشورات التبيين، الجزائر 2007، ص 197.

2 - محمد زيتلي، جريدة الشعب، ع(25 | 01 | 1981)، الجزائر.

3 - فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، مرجع سابق، ص 100.

4 - المصدر نفسه، ص 103.

ويقول أيضا في قصيدة أخرى عنوانها "رؤيا":

يقبل ليل

ويقضي على البعد ليل

ظهري روم و بطني روم

على أي جنب أميل⁽¹⁾

فهذه العبارة مأخوذة لفظا ومعنى من المتنبي في قوله:

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبك تميل؟

خاتمة:

والحقيقة أنه حتى إذا كان التأثر بالقصيدة المشرقية بهذا الحجم « فإنّ هذا الأمر لم يكن عائقا أمام ظهور لغة تتميز بواقعيته وتنبع من عمق الظروف التي اجتاحت البلاد ولا بدّ أن نوضح هنا بأن بعض الأعمال الشعرية استطاعت أن تبرز الوجه الحقيقي للواقع الجزائري الحالي من خلال قاموسها الشعري.»⁽²⁾

1. فقد دخلت مفردات جديدة وارتبطت بالتجارب المختلفة حسب الظروف والحالات النفسية والشعورية للشعراء، مثال ذلك ديوان "رصاص و زنايق" لعمار بن زايد الذي نجد فيه كلمات مأخوذة من عمق الواقع الجزائري: (الحية الرقطاء، البيع و الشراء، الدولار، الدينار، أرض البطولات، دماء الفقراء، المدينة، الغاز، الزلزال، الأوراق، اللّعبة، المهزلة...)⁽³⁾ وهي مفردات تعكس تدهور الواقع السياسي الجزائري وانحطاط المستوى الاجتماعي في جزائر ما أقامت أعظم ثورة في التاريخ المعاصر من أجل أن تكون على هذه الصورة.

¹ - المصدر نفسه، ص47.

² - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص411.

³ - عمار بن زايد، رصاص و زنايق، مصدر سابق.